

الشريف قتادة بن إدريس الحسني أمير مكة (527-617هـ/1132-1220م)

ابراهيم فاعور الشرعة¹، أنور عوده الخالدي² *

ملخص

تحاول هذه الدراسة استجلاء شخصية الشريف، قتادة منذ نشأته حتى وفاته، متضمنة نسبه وكنيته وذريته، ومذهبه وأدبه، وتوليه شرافة مكة، وعلاقاته مع أمير المدينة الحسيني، وأهل الطائف، بالإضافة إلى مواقفه من قافلة الحج العراقي والتي أثرت على علاقته بالخليفة العباسي الناصر لدين الله، وكذلك علاقة الشريف قتادة بإمام اليمن عبد الله بن حمزة، خاصة بعد أن تعاضم أمر قتادة واتسعت ولايته باعتبار أن شرافة مكة استمرت في سلالة لمدة سبعة قرون، وبذلك يُعد الشريف قتادة الجد الأكبر للأشراف الحسينيين الذين تولوا إمارة مكة وكان آخرهم الشريف الحسين بن علي (1908-1916م)، وهو الشريف المائة من نسل الأشراف القتادات. حيث ما زالت هذه السلالة تحكم إلى وقتنا الحاضر في المملكة الأردنية الهاشمية؛ إذ يُعد الشريف قتادة جد الملك عبد الله الثاني ابن الحسين.

الكلمات الدالة: الشريف قتادة، مكة، الأشراف الحسينيون، الحجاز، الهاشميون.

المقدمة

اسمه ونسبه: هو قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد بن موسى بن عبد الله بن موسى بن الجون بن عبد الله بن الحسن بن الحسن السبط بن علي بن الحسيني القرشي (527-617هـ/1132-1219م)، يعود نسبه إلى أمير المؤمنين علي بن أبي طالب من زوجته فاطمة الزهراء ابنة الرسول صلى الله عليه وآله وسلم (ابن المجاور، 1951، 10)، ونفي الفاسي⁽¹⁾ زعم من شكك بنسب قتادة للأشراف الحسينيين، وقام بضبط نسبهم، واتفق معه في ذلك عديد من النسابة (ابن الطقطقي، د.ت، 65، 72، 92) (الفاسي، د.ت، 47)، حيث أجمع هؤلاء على إثبات نسب آل قتادة للأشراف الحسينيين ابناء الحسن، إن ما ذكره الفاسي واتفق علماء النسب المحققون ومؤرخو مكة معه في ضبط نسب قتادة، موافق للشواهد الحجرية المنقوش فيها نسب أحفاد الشريف قتادة في كتاب معجم أشراف الحجاز (الحري، د.ت، 20)، كذلك أكد النسابة ابن عنبه (ت828هـ/1424م) في كتابه "عمدة الطالب" نسب هذا الفرع من الأشراف الحسينيين (ابن طباطبا، 2004، 58)، وقد أيدته في ذلك عديد من المؤرخين الذين ساقوا نسب قتادة وسردوه سرداً (العبيدي، 1959، 36، 60)، وربما قصد من شكك بنسب أبي عزيز قتادة أنه لم يكن من الهواشم آل فليته⁽²⁾ الحسينيين حكام مكة قبله؛ فهو حسني من جهة الأب، حسيني من جهة الأم وهذا لا ينفي نسبه للأشراف.

ولكن تبقى شجرة النسب كما أوردها النسابة ابن عنبه الأجدر بالاعتماد، والأولى بالنقل لأسباب عديدة؛ أهمها أن ابن عنبه مفصل ومعه زيادة في علم، في حين أن غيره ساق النسب مجملاً وسرده سرداً. هذا إضافة أن ابن عنبه نسابة ومؤلفه بالأساس في أنساب بني أبي طالب خاصة، فهو مختص في هذا الباب بخلاف غيره من العلماء والمؤرخين الذين وقع في سردهم لنسب قتادة اضطراب، فعليه يكون قتادة بن إدريس بن مطاعن بن عبد الكريم بن عيسى بن حسين بن سليمان بن علي بن عبد الله بن محمد

* قسم التاريخ، الجامعة الأردنية(1)؛ قسم التاريخ، جامعة آل البيت(2)، الأردن. تاريخ استلام البحث 2018/12/9، وتاريخ قبوله 2019/3/14.

1. الفاسي: هو تقي الدين، محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي المالكي (ت832هـ/1428م)، مؤرخ وعالم بالحديث ينتهي نسبه إلى الامام الحسن بن علي بن أبي طالب، ويتصل نسبه بإدريس الأول مؤسس الدولة الادريسية بالمغرب (170-375هـ)، رحل في طلب العلم وزار كلاً من القاهرة ودمشق وبيت المقدس واليمن، تولى منصب قضاء المالكية في مكة المكرمة، تتلمذ على يد الحافظ بن حجر العسقلاني واخذ عن غيره الكثير، له الكثير من المؤلفات مثل الجواهر السنية في السيرة النبوية، للمزيد أنظر: الكتاني: فهرس الفهارس، ج1، ص249؛ السخاوي: الضوء اللامع: ج7، ص18.

2. آل فليته: هم أولاد الامام الحسن بن علي المرتضى، وكان له من الاولاد تاج الدين وعمدة الدين هاشم، ونازعه في الحكم اخيه يحيى وعبد الله، ومن اسرة فليته ايضاً الامير قطب الدين عيسى بن فليته، ومن ذريته مكثر بن عيسى والي مكة؛ للمزيد أنظر: ابن ظهيرة: مصدر سابق، ص191؛ ابن عنبه:

الثائر بن موسى بن عبد الله بن موسى الجون بن عبد الله المحض بن الحسن المثنى بن الحسن السبط بن علي بن أبي طالب - رضي الله عنه-. والشريف قتادة هذا - موضوع الدراسة- هو جد الأشراف أمراء مكة لاحقاً (ابن دعثم، 1993، 463). كانت ذرية الشريف قتادة من ولده هم بنو أبي نمي أمراء مكة، وكانوا مقيمين بنهر العلقمية من وادي ينبع⁽³⁾، وصف قتادة بالشريف الأجل ابن الشريف الأجل أبي مالك إدريس القرشي الهاشمي العلوي الحسني الينبوعي المكي (أبو شامة، 1997، 186)، وبقتادة انتهت دولة بني فليته الهواشم⁽⁴⁾ بعد حكم دام قرن ونصف القرن (ابن عنبه، د.ت، 98)، ويتضح بعد عرض هذا النسب علو نسب الشريف قتادة الذي يعتبره المؤرخون والنسابة بداية السلسلة الكريمة من الطبقة الرابعة في طبقات الأسر الهاشمية التي حكمت مكة حتى نهاية الربع الأول من القرن العشرين.

عُرف الشريف قتادة بأبي عزيز، وقيل إنه مجرد كنية له كعادة العرب يكون أبناءهم وهم صغار، فإذا ما كبر وأنجب تجنب التسمية بتلك الكنية. هذا ولقب قتادة بعدة ألقاب هي: أمير مكة، وصاحب مكة الشريف أبو عزيز ابن الأمير الشريف أبي مالك العلوي الحسني (أبو شامة، 1997، 186)، كما لقب بصاحب مكة وينبغ وغير ذلك من بلاد الحجاز (الصفدي، 2000، 144) كذلك أطلق عليه لقب سلطان الحرم، وكان قتادة من أكابر العلماء والرؤساء وعرف بذكائه الشديد. (الصنعاني، 2002، 191).

مولد الشريف قتادة: وُلد بوادي ينبع، وبه نشأ (أبو الرجال، د.ت، 111) وكان ذلك في سنة (527هـ/1132م)، فقد كان هو وأهله بني مطاعن مقيمين في نهر العلقمية من أودية ينبع، وكانت قبل ذلك لجده عبد الله المحض، ثم توارثها أبناؤه جيلاً بعد جيل حتى آلت إلى الشريف قتادة (ابن طباطبا، 2004، 57). ولما نشأ فيهم قتادة وكان ذا شخصية قوية اشتهر في قومه عند بلوغه سن الشباب حتى عرف بينهم بـ "قتادة النابغة". وتشير بعض الروايات إلى أن عُمر قتادة نحو سبعين سنة عند مقتله. وقيل عاش أكثر من ثمانين سنة (ابن الأثير، 1987، 17) (أبو الفداء، 1997، 226)، ويقال إنه بلغ التسعين سنة، وهذا التفاوت في سنه يعود لخلط المصادر، والتي بعضها يُشير لأكثر من رأي دون ترجيح لرأي على الآخر، إلا أنه وبعد الاطلاع على المصادر المعاصرة للشريف قتادة ومن خلال سياق الأحداث المرتبطة به نرجح بلوغه سن التسعين عاماً (المقريزي، 1997، 206).

سمات شخصية الشريف قتادة وأعماله: اتسمت شخصية الشريف قتادة بعدد من الصفات تضاربت الروايات حولها، فقد ذكر جماعة من العلماء قتادة في كتبهم، وما فيه من الأوصاف المحمودة والمذمومة، فوصف بأنه كان فاضلاً يُشهد بنبهه وتسمو الهمم العلية لمثله (أبو شامة، 1997، 186) (ابن كثير، د.ت، 99). وتذكر مصادر الدراسة بأنه: كان شيخاً طويلاً مهيباً، قوي النفس، مقدماً فاضلاً لا يخاف من أحد من الخلفاء والملوك (ابن الجوزي، 1992، 254). حيث قال عنه الخليفة الناصر لدين الله العباسي (577-623هـ/1180-1225م): كان عادلاً منصفاً وشيخاً مهيباً طويلاً، وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله (ابن خلدون، 1992، 125). أما ابن الأثير فقال: كان في أول أمره لماً ملك مكة، حسن السيرة، أزال عنها العبيد المفسدين، وحمل البلاد، وأحسن إلى الحجاج وأكرمهم، وبقي كذلك مدة (ابن الأثير، 1987، 712)، وقال عنه المنذري: "رأيتَه يطوف بالبيت، شرفه الله تعالى، ويدعو بتضرع وخشوع، والرئيس على زمزم يدعو له وهو كالأسد شجاعة والقطب خشوعاً وتضرعاً والبرد كمالاً وبهاء. وما كان يلتفت إلى أحد من خلق الله" (المنذري، د.ت، 17).

أما ابن سعيد المغربي، فقال: كان أبو عزيز أدهى وأشهر من ملك مكة منهم، ابتاع الممالك الأشراف، وصيرهم جنداً يركبون بركوبه، ويقفون إذا جلس على رأسه، وأدخل في الحجاز من ذلك ما لم يعهده العرب، وكان متى قصد منهم فريقاً، أمر فيهم بالسهم، فأطاعته التهائم والجنود، وصار له صيت في العرب لم يكن لغيره (المغربي، 1955، 471). وكان يخشى الله ويتراجع عن الظلم ويرد المظالم إذا ظلم أحداً. يقول عنه ابن الأثير لما كثر عسكره، باستكثاره من الممالك، واتسعت ولايته، أساء السيرة، وجدد المكوس بمكة، وفعل أفعالاً شنيعة، ونهب حجاج بيت الله الحرام في بعض السنين (ابن الأثير، 1987، 712). لقد خافته العرب في تلك البلاد خوفاً عظيماً ورغم ذكر المؤرخين لتغيير سياسته (الفاسي، د.ت، 471)، إلا أنهم لم يشيروا إلى الأسباب التي دفعته إلى ذلك.

3. العلقمية: هي قرية من قرى ينبع تتبع للمدينة المنورة حالياً في المملكة العربية السعودية، كانت تسمى قديماً نهر العلقمية وهي عبارة عن عين جارية، وكانوا قديماً يطلقون لفظ نهر على عين الماء الجارية، للمزيد أنظر: سبط ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (1256هـ/1864م) مرة الزمان في تواريخ الزمان، تحقيق محمد بركات وآخرون، دار الرسالة، ط، دمشق، سوريا، (1434هـ/2013م) ج22، ص253؛ القلقشندي، قلائد الجمان، ص162؛ العاصمي، مصدر سابق، ج4، ص223؛ ابن خلدون، مصدر سابق، ج4، ص125.

4. هم أولاد الإمام الحسن بن علي المرتضى (ت1065هـ/1661م)، وأعقب الأمير فليته عدة رجال منهم: تاج الدين وعمدة الدين هاشم اخذ مكة بحد السيف من إخوته وعمومته وكان أخوه يحيى وعبد الله قد نازعاه الملك فغلبهما عليه، للمزيد أنظر: ابن ظهيرة، مصدر سابق، ص191؛ ابن عنبه، عمدة الطالب، صفحات99، 98.

ولربما أن الإعانة التي كان صلاح الدين الأيوبي قد فرضها لأمرأ مكة مقابل إلغاء الضرائب قد انقطعت بعد فترة من ولاية قتادة؛ بسبب انقسام البيت الأيوبي وتدهور أوضاع دولتهم، إلى جانب تدهور العلاقة بين قتادة وبعض السلاطين الأيوبيين، مما دفع قتادة إلى إعادة الضرائب لسد احتياجات إمارته، ولربما أيضا كانت طبيعة شخصية الشريف قتادة المتمسمة بالقوة والشكيمة والطموح بتوسيع إمارته وراء وصفه من قبل بعض المصادر بسوء السيرة.

وفي المجال العمراني يشير الفاسي انه بنى سور على مكة (الفاسي، د.ت، 475): "وأظنه سورها الموجود اليوم ... وبلغني أنه الذي بوادي نخلة الشامية⁽⁵⁾، وبقيت آثاره حتى عهد الفاسي (ت832هـ/1428م)، وأضاف أيضاً أنه بنى على الجبل الذي في أسفل السبط من وادي نخلة المذكورة، مصباً على جبل يقال له العطشان (الفاسي، د.ت، 475)، وفي سنة (605هـ/1208م) عمّر قتادة المشهد الذي به قبر الحسين بن علي بن الحسن الحسني، صاحب وقعة فخّ ظاهر مكة بطريق العمرة (أبو الفداء، 1997، 226) (القلقشندي، د.ت، 161).

شعر الشريف قتادة: كان أديباً شاعراً ومن أبرز شعراء عصره، ولكن من المؤسف لم تحفظ لنا كتب التاريخ أكثر مما عثرنا عليه وأوردناه في هذه الدراسة (المنذري، د.ت، 17) (الذهبي، د.ت، 360)، ومن جملة شعره للخليفة الناصر لدين الله العباسي بعد رفضه دخول بغداد (ابن الجوزي، 2001، 63):

بلادي وإن جارت علي عزيمة	ولو أنني أعري بها وأجوع
ولي كف ضرغام إذا ما بسطتها	بها أشترى يوم الوغى وأبيع
معودة لثم الملوك نظهرها	وفي بطنها للمجدين ربيع
أتركها تحت الرهان وأبتغي	بها بدلا إني إذا لرقيع
وما أنا إلا المسك في أرض غيركم	أضوع وأما عندكم فأضيع

الشريف قتادة وإمارة مكة: اتسمت سياسته الخارجية بالثقل في الولاء بين العباسيين والفاطميين، فتارة يدعون للخلافة العباسية وأخرى للخلافة الفاطمية، وفي كثير من الأوقات كان سببا في إيذاء الحجاج ونهبهم وبث الرعب في الحرمين الشريفين (ابن تغري بردي، د.ت، 137)، كان الدافع القوي والمباشر الذي دفع وعجل بالشريف قتادة للاستيلاء على شرافة مكة، ما بلغه من انهماك أمرائها الهواشم من بني فليته على اللهو، وظلمهم الناس، وساعد قتادة أن بعض قادة أمير مكة لم يرغبوا بأمرهم أكثر من عيسى بن فليته لكثرة جورهم، وجراء ذلك تجهز قتادة إلى مكة في جماعة من قومه، فما شعر به أهل مكة، إلا وهو بها معهم، وولاتهم على ما هم فيه من الانهماك في اللهو واضطراب الأوضاع، فلم يكن لهم بمقاومته طاقة، فملكها دونهم (العاصمي، د.ت، 223، 224). وربما استأنس قتادة برسالة سابقة مرسلة من صلاح الدين الأيوبي إلى الأمير أكثر ينهائه فيها ويوبخه ويتوعده عن استئصال ظلمة والجرور الذي لحق بالناس، ويتوعده (العاصمي، د.ت، 223).

وهناك أشارات في بعض المصادر إلى أن قتادة لم يأت لمكة بنفسه عند بداية السيطرة عليها، وإنما أرسل إليها ابنه حنظلة الذي ملكها بعد أن تقائل مع أميرها عند المتكأ، فأخرج منها الأمير أكثر إلى وادي نخلة (الفاسي، د.ت، 462)، وكان الأمير أكثر قد ورثها عن أبائه المعروفين بالهواشم (الفاسي، د.ت، 462، 471)، وفي سنة (600هـ/1203م) مات أكثر بنخلة، وجاء ابنه محمد بن أكثر، وقاتل حنظلة بن قتادة عند المتكأ، فانهزم ابن أكثر وتمت البلاد لقتادة (العاصمي، د.ت، 223)، ويقول ابن عنبه والإمارة في ذرية قتادة إلى الآن (ابن عنبه، د.ت، 109)، أي عصر ابن عنبه الذي توفي سنة (ت828هـ/1424م)، ويُعد قتادة أول من تولى إمارة مكة من هذا الفرع الشريف وكان ذا بأس ونجدة وشوكة (دحلان، د.ت، 36).

عمل الشريف قتادة على تنظيم إمارة مكة حيث أنشأ الوزارة، وعين ابن الزنجاني سليمان بن عبد المحسن التميمي الدارمي وزيراً له، واختلفت المصادر في فترة حكم قتادة لمكة، فقيل حكم عشرين سنة أو نحوها (ابن الأثير، 1987، 560، 561)، وقيل دام حكم قتادة نحو سبع وعشرين سنة، وذكر المنذري أنه ولي إمارة مكة مدة، دون أن يحدد تلك المدة، ومرد هذا التفاوت عائد إلى الخلاف في بدء حكمه لمكة، هل هو سنة (597هـ/1200م)، على ما ذكر الميورقي، نقلا عن القاضي فخر الدين عثمان بن عبد الواحد العسقلاني المكي (الذهبي، د.ت، 359) (ابن فهد، د.ت، 566)، أم في سنة (598هـ/1201م) كما ذكر الذهبي في العبر أو هو سنة (599هـ/1202م)، وذلك بعد ملكه لينبع (الفاسي، د.ت، 463)، إلا أن ابن عنبه يرجح سنة (597هـ/1200م) معللاً ذلك

5. وادي نخلة: موضع بالحجاز بالقرب من مكة فيه نخل وكروم. ياقوت الحموي، مصدر سابق، ج5، ص277.

بقوله: "ووجدت في تاريخ عبد الله بن حنظلة البغدادي: أن قتادة أخذ مكة من مكث بن عيسى سنة سبع وتسعين وخمسائة" (ابن عنبه، د.ت، 107).

التهديدات الخارجية لمكة في عهد أسرة آل قتادة: أولاً: المدينة المنورة: أراد قتادة توسيع دائرة حكمه لتشمل المدينة المنورة التي كانت تحت حكم أبناء عمه الحسينيين، وكان أميرها آنذاك سالم بن قاسم الحسيني الهاشمي، وأرسل جيشاً لضم المدينة إلى مكة سنة (1204هـ/601م)، ووقع القتال بينهما خارج المدينة في ذي الحليفة بالقرب من المدينة، ومع كل واحد منهما جمع كثير، فاقتتلوا قتالاً شديداً، حيث قتل فيها جماعة من الطرفين، وهزم أمير المدينة الأمير سالم، ولجأ إلى داخل المدينة نفسها فتبعه قتادة وحاصره فيها (ابن الأثير، 1987، 560). وعمل الأمير سالم على استمالة أصحاب قتادة وإغرائهم بالأموال ثم إثارته عليه، وفي الوقت نفسه أعاد الأمير سالم تنظيم قواته واستعد لمعاودة قتال قتادة الذي كان مستهيناً بقوات الأمير سالم الذي استعاض عن كثرة العدد بحسن السياسة والتدبير، وسار إليه فانهزم قتادة وتبعه سالم إلى مكة، فحاصره هناك بعدد أيام حصاره للمدينة، وكتب إليه: "يا ابن العم كسرة بكسرة، وأيام حصار بمثلها، والبادي أظلم، فإن كان أعجبكم عامكم فعودوا ليثرب في القابل" (ابن فهد، د.ت، 3، 4). وكان الأمير سالم قد شعر بتأمر بعض أتباعه مع قتادة وأنهم سينقلبون عليه، لذا قرر العودة إلى المدينة، وبعد العودة استطاع من أسر وزير قتادة سليمان بن عبد المحسن التميمي الداري وزير قتادة (ابن الأثير، 1987، 561) (الفاسي، د.ت، 464)، وذكر ابن سعيد المغربي حرب قتادة مع صاحب المدينة في هذه السنة (1204هـ/601م) (المغربي، 1955، 465)، وأنه أصبح الصراع في الحجاز بين أبناء العمومة من بني الحسن والحسين أبناء الأمام علي بن أبي طالب الذي لا فرق بينهم، ولم ينته الصراع بين أمير مكة وأمير المدينة بل استمر، فحينما توجه الملك المعظم عيسى بن العادل سنة (1215هـ/611م)⁽⁶⁾ لأداء مناسك الحج، ومعه جماعة من خواصه، وسلخوا طريق الغلا وتبوك، فاستقبله الأمير سالم استقبالاً مهيباً وقدم إليه الهدايا الثمينة، كذلك قدم له مفاتيح المدينة وأنزله في داره، فسُر الملك بذلك، وربما كان هذا الدافع وراء دعم الملك المعظم عيسى للأمير سالم أمير المدينة ضد خصمه الشريف قتادة، وهذا خلاف مما قدمه الشريف قتادة له عندما ذهب إلى مكة بعد مغادرة المدينة للحج، التي وصلها يوم الثلاثاء سادس ذي الحجة، فقد استقبله استقبالاً فاتراً، يُعزز ذلك ما ذكره سبط ابن الجوزي، بقوله: و"حكى لي الملك المعظم، قال: قلت له: أين ننزل؟ فأشار إلى الأبطح بسوطه، وقال: هناك فنزلنا بالأبطح، وبعث إلينا هدايا بيسيرة" (ابن الجوزي، 1992، 200) (النويري، 2002، 71).

وبعد أداء مناسك الحج عاد الملك المعظم عيسى بن العادل إلى الشام عن طريق المدينة، فبالغ الأمير سالم مرة أخرى في إكرامه، وأثناء إقامته بالمدينة اشتكى إليه قتادة وجوره، فزاد ذلك من حقد الملك المعظم على قتادة، فوعده بوضع حد لصلفه وغروره، ولربما أن قتادة كان يخشى من أطماع الأيوبيين في السيطرة على مكة، فلجأ إلى الخشونة في معاملتهم، وبعد عودة الملك إلى الشام جهز جيشاً بقيادة الأمير الناهض بن الجرخي وأرسله إلى المدينة، فاستقبلهم الأمير سالم استقبالاً حسناً وأكرمهم وساروا إلى مكة لقتال قتادة الذي ما أن سمع بقومهم حتى غادرها إلى البرية كي لا يقع في أيديهم، وعلى الرغم من الغموض الذي يخيم على تلك الأحداث، إلا أننا نرى أن الملك المعظم أرسل إلى عمه السلطان الكامل (1215-1117هـ/615-1218م) في مصر يخبره بما حصل في الحجاز، وظلم قتادة حيث انتظر رده، وعندما طال الرد استتبأ الأمير سالم النجدة، فخرج لاستقبالها والتقى بالناهض وقواته في الطريق فاصطحبهم إلى المدينة، وخرج معهم لقتال الشريف قتادة الذي استعد لهم وخرج لقتالهم. وكل ذلك خلال سنة (1215هـ/611م) ودارت بينهما معركة الصفراء التي هزم فيها الشريف قتادة، ولجأ إلى حصنه في ينبع وحاصره فيه (ابن الجوزي، 2001، 201).

واستمر الحصار مدة من الزمن حتى دخلت سنة (1216هـ/612م)، ويبدو أنه خلال ذلك توفي الأمير سالم وخلفه ابن أخيه قاسم بن جماز، الذي واصل الصراع مع قتادة، وأصبح يرد على اعتداءات قتادة بمثلها، بل أخذ يكثر من الهجوم على ممتلكاته؛ إذ لم تكد تلك المعارك تنتهي حتى أعد قاسم قواته وهاجم وادي القرى ودخله، واستولى عليه وأقام به استعداداً لمهاجمة مكة، بعد انقضاء مناسك الحج وعودة الحجيج إلى بلادهم، وذلك سنة (1217هـ/613م). ويظهر أن قتادة كان قد استجد بالسلطان الكامل محمد في مصر الذي أرسل قواته إلى ينبع وتسلمها من نواب قتادة لحمايتها من هجوم قاسم بن جماز صاحب المدينة عليها، وصل الخبر

6. الملك المعظم شرف الدين عيسى بن سيف الدين بن أحمد سلطان دمشق (576-624هـ/1180-1227م)، وهو ابن الملك العادل ومن سلاطين الأيوبيين في دمشق، كان عاملاً بالفقه والشعر، وله المخلفات الكثيرة التي شيدت في عهده مثل المدرسة المعظمية وابنية أخرى من مؤلفاته كتاب في العروض وله ديوان شعر، للمزيد أنظر: القرمانلي: آثار الدول وأخبار الأول، ج2، ص258.

بتسليم نواب الكامل لينبع من نواب قتادة، حماية له من قاسم بن جمار، وبأن قاسم بن جمار أخذ وادي القرى ونخلة من قتادة، وهو مقيم به ينتظر الحجاج حتى يقضوا مناسكهم، وينزل هو مكة بعد انفصالهم عنها" (أبو شامة، 1997، 142، 143). وأصبحت الحرب سجالاتاً بين الطرفين، فقد أعد قتادة سنة (617هـ/1220م) قوات كبيرة سار على رأسها رغم مرضه، لحصار المدينة، والاستيلاء عليها، ولكنه لم يكد يصل منطقة الفرع حتى اشتد عليه المرض؛ فأوكل قيادة القوات إلى أخيه وابنه حسن وعاد إلى مكة، وواصل الجيش سيره إلى المدينة، وبعد الفرع بقليل نشب خلاف بين حسن بن قتادة وعمه قائد الجيش (ابن الأثير، 1987، 713)، ورغم أن المصادر لم توضح لنا مصير الحملة وما آلت إليه، إلا أنه مما لا شك فيه أن الحملة عادت إلى مكة؛ لأن قائدها شقيق الشريف قتادة قد قتل من قبل حسن بن قتادة. وبعد ذلك عاد الحسن بن قتادة مساعد قائد الحملة إلى مكة وقتل أبيه قتادة، وقد أنقذ ذلك المدينة من خطر محقق كان محدقاً بها، ويختصر الفاسي نتيجة الصراع بين شريف مكة قتادة وأمير المدينة بقوله: "وغلّب كل منهما الآخر حيناً (ابن ظهيرة، د.ت، 192).

ثانياً: أهل الطائف: بعد استيلاء الشريف قتادة على مكة ازدادت أطماعه، فأراد توسيع حدود ولايته، ولتحقيق ذلك كانت رؤيته لا بد من الاستيلاء على المناطق المجاورة لولايته، وقرر في جمادى الأولى سنة (613هـ/1216م) المسير إلى الطائف والسيطرة عليها، وقد كان له ما أراد؛ إذ ظهر عليهم، فقتل جماعة من مشايخ تقيف في دار بني يسار من قرى الطائف، ونهب جيشه بلادهم (الفاسي، د.ت، 467) وكان قد هرب من تقيف بعض رجالها، وتحصنوا في حصونهم. فأرسل إليهم الشريف قتادة يستدعيهم للحضور إليه ويؤمنهم، وتوعدهم بالقتل إن لم يحضروا، فتشاورت تقيف في ذلك، ومال أكثرهم إلى الحضور عنده خيفة أن يهلكهم إذا ظهر عليهم، فحضروا عنده إلا أنه تنصل لوعده فقتلهم، واستخلف على بلادهم نواباً من قبله وعضدهم بعبيد له؛ فلم يبق لأهل الطائف معهم كلمة ولا حرمة، وباستيلاء قتادة على الطائف اتسعت ولايته حتى بلغ حدود اليمن جنوباً، ولذلك ذاع صيته وعظم شأنه (ابن خلدون، 1955، 126) (القلقشندي، د.ت، 277).

إلا أن أهل الطائف عملوا حيلة في قتل جماعة الشريف قتادة، فاستطاعوا قتل رجال قتادة، ولم يسلم منهم إلا واحد أستطاع الهروب ووصل إلى قتادة، وقد تخيل عقله لشدة ما رآه من الذبح في أصحابه، وأخبر قتادة بالخبر فلم يصدق، وظن أنه قد جن لما رأى فيه من الخبل (دحلان، د.ت، 36)، وبذلك فإن أهل الطائف لم ينتظروا طويلاً على النذل والظلم الذي أصابهم، منتهزين فرصة سحب قتادة قواته من الطائف، لمواجهة قوات قاسم بن جمار أمير المدينة، الذي سار للاستيلاء على مكة في ذلك العام، فدبر أهل الطائف حيلتهم في ذلك بالوقت المناسب، وعادت الطائف كما كانت سابقاً مستقلة عن إمارة مكة.

الشريف قتادة وقافلة الحج: تباينت أوضاع الحجاج خلال ولاية الشريف قتادة على مكة، فقد سار في بداية أمره سيرة حسنة، ومنع المفسدين وألغى المكوس والضرائب عن الحجاج، فصاروا يغدون ويروحون في أمن وسلام، ولكن تلك السياسة الحسنة لم تلبث أن تبدلت فجأة وانقلبت رأساً على عقب، حيث يشير ابن الأثير لذلك في أحداث سنة (608هـ/1211م) لنهب قافلة الحج العراقي، بقوله: "نهب قتادة الحجيج العراقي بمنى عندما قام رجل باطني من الإسماعيلية بالوثوب يوم النحر بمنى بعد رمي الناس الجمره على رجل شريف من بني عم قتادة، أشبه الناس به، اعتقاداً أنه قتادة، فقتله عند الجمره" (ابن الأثير، 1987، 632)، ويقال إن الذي قتله كان برفقة أم جلال الدين والدة جلال الدين صاحب قلعة الموت⁽⁷⁾، وثار عبيد مكة والأشراف فيها، وصعدوا على الجبلين بمنى، وهلّلوا وكبروا، وضربوا الناس بالحجارة والمقاليع والنشاب، ونهبوا الناس يوم العيد والليله واليوم الثاني للعيد، وقتل من الفريقين جماعة، وكرد فعل على ما حصل أشار ابن أبي فراس الحلبي، لمحمد بن ياقوت أمير الحج العراقي: ارحل بنا إلى الزاهر، إلى مكان نزل الشاميين، فلما حُملت الأتقال على الجمال حمل عليهم قتادة أمير مكة والعبيد، فأخذوا معظمها (أبو شامة، 1997، 121).

واستجد محمد بن ياقوت أمير الحج العراقي بربيعه خاتون، فبعثته ربيعه خاتون مع ابن السلال إلى قتادة تقول له: ما ذنب الناس! قد قتلت القاتل، وجعلت ذلك وسيلة إلى نهب المسلمين، واستحللت الدماء والمال في الشهر الحرام وفي البلد الحرم، وقد عرفت من نحن، والله لئن لم تنته لأفعلن ولأفعلن (ابن فهد، د.ت، 10، 13)، فجاء إليه ابن السلال، فخوفه وهدده، وقال: ارجع عن هذا، وإلا قصدك الخليفة من العراق ونحن من الشام، فكف عنهم، وطلب قتادة مقابل ترك الحجيج مبلغ من المال يقدر بمائة

7. هو جلال الدين حسن، صاحب قلعة الموت، وكان هو وأتباعه قد تبرأوا من الباطنية - وهي إحدى الفرق الكبرى التي تلبست بالإسلام وانتسبت إلى التشيع وتظاهرت بموالاة أهل البيت وهم منهم براء وادخلت هذه الفرقة كثير من الإبائيل والكفر والشك في الله تعالى - وبنوا المساجد، وأقيمت فيها الجمعة والجماعات، وصلوا التراويح في شهر رمضان، وحجت أمه في سنة (608هـ/1211م)، وتقع إطلالة هذه القلعة على قمة صخرة شاهقة في جبال البرز للمزيد أنظر: ابن تغري بردي، مصدر سابق، ج6، ص180.

ألف دينار، فجمعوا له ثلاثين ألفاً من أمير الحج العراقي، ومن ربيعة خاتون، وأقام الناس ثلاثة أيام حول خيمة ربيعة خاتون، بين قتيل وجريح ومسلوب وجائع وعريان، ويقال إنه أخذ من المال والمتاع وغيره ما قيمته ألفا ألف دينار، وأذن للناس في الدخول إلى مكة، فدخل الأصحاء الأقوياء، فطافوا بالبيت، وعلى أثر ذلك أرسل الشيرازي فتادة إلى الخليفة في بغداد يسأله العفو، فأجيب إلى سؤاله، وأرسل إليه الخليفة في السنة التالية سنة (610هـ/1213م) المال والخلع والكسوة على العادة (ابن الجوزي، 2001، 22) (أبو شامة، 1997، 121).

مذهب الشيرازي فتادة وعلاقته بإمام اليمن: يُعد الشيرازي فتادة من أكابر الأشراف العلويين الحنفيين الزيديين، وكان في عهده يؤذن في الحرم بـ"حي على خير العمل"، على مذهب الزيدية، وحول تدين الشيرازي فتادة يقول المنذري واصفاً تدينه: "رأيتَه يطوف لما حجنا، ويدعو الله بتضرُّع وخُشوع كثير" (الصفدي، 2000، 144) (ابن كثير، 1997، 99) (ابن دعثم، 1993، 65).
عاصر الشيرازي فتادة الإمام عبد الله بن حمزة⁽⁸⁾ في اليمن، وكان فتادة كما يصفه أبو الرجال صاحب مؤلف "مطلع البدر في تراجم رجال الزيدية": "أحد أعضاء الإمام المنصور بالله عبدالله بن حمزة ومن خلص أصحابه" (أبو الرجال، د.ت، 111)، وقد استعان به الإمام، واستجاب له فتادة وأرسل له من أعوانه جماعات لنصرته، وفي المقابل أرسل إليه الإمام بهدية نفيسة متمثلة في الفرس اليمانية، التي ما ذكر في عصرها ولا بعدها لها ثاب في الجودة، وأمره ببناء قبة على قبر الإمام الحسين بن علي (ت169هـ/785م) (الطبري، 1966، 203).

وقد أكد الشيرازي فتادة في رسائله للإمام على العلاقة الحسنة والوطيدة التي تربطهما ببعض، ومما كتبه الشيرازي فتادة للإمام أنه "ممن شمروا في خدمة الخلافة النبوية والإمامة العلوية الإزار، وخلصوا في منابذة الدولة العباسية الصادر"، وقوله أيضاً للإمام مؤكداً ولأهله: "وقبضت الحقوق الواجبة من قبائل الحجاز من بني وعدوان وجهينة ومزينة وهذيل وسليم وحرب وسایل الرس وعرض السيلة، ودخل الناس في دين الله أفواجاً"، وتعهد فتادة في كتابه للإمام بمتابعته لإخضاع البلاد لنفوذ الإمام قائلاً له: "أنه طهر مكة من الأنداس" (أبو الرجال، د.ت، 111، 112) وأنه يُرسل السرية بعد السرية والعصبة بعد العصبة حتى يستحكم أمر اليمن والحجاز، وتكون المطالبة في سواهما إن شاء الله"، وفي كتاب آخر يتبين لنا عمق العلاقة بينهما، ففي يوم ست وعشرين ليلة خلت من شوال سنة (598هـ/1201م) ذكر فتادة للإمام استظهاره على بني هاشم، وتطهيره لمكة من أدران الخبائث، ويقسم بالله تعالى الإيمان المؤكدة "ما أخرجت الإمداد بالخيال والرجال جهلاً بما يجب علي من فرض إجابة الدعوة الامتثال للأوامر الامامية، وما يلزمني من الطاعة إلا إني صرت بين عدوين، صاحب مكة وصاحب المدينة يتوقعان العثرة، ولا يدعان ممكناً من المصرة ولكني لا أدع ممكناً من إيفاد السرية بعد السرية إن شاء الله"، وذيل الشيرازي فتادة كتابه للإمام بتجديد البيعة له، مخاطباً إياه بأنه: "باق على طاعة الإمام، ممتثلاً لأوامره، مقراً بولايته ومحبهته ومُنقذاً للأحكام الشرعية عن أمره"، وكان المتولي لتجديد العهود وقبض الحقوق بين الطرفين الفقيه بهاء الدين علي بن أحمد الأكوخ، بدوره أكد الإمام على العلاقة الحميمة التي تربطه بفتادة بقوله لبعض خاصته: "وصلت كتب أبي عزيز فتادة بن إدريس تقوق ما نرجوه، جدَّد البيعة على نفسه وعلى طائفة من بني حسن، عقبة بن يحيى فمن دونه" (أبو الرجال، د.ت، 111، 112) (ابن دعثم، 1993، 58، 79).

ومما يؤكد على طبيعة العلاقة الوطيدة بين الشيرازي فتادة وإمام اليمن ما ذكره ابن دعثم (ابن دعثم، 1993، 72، 78) من أشعار للإمام عبد الله بن حمزة، كان أنشدتها إلى فتادة وإلى الأشراف من أهل الحجاز. ويلاحظ على الأبيات الشعرية ذكر الإمام ابن حمزة لأهم القرى والمدن في الحجاز ومتذكراً بعض الذكريات، بحكم أن هجرة آبائه كانت من المدينة ومن الرس بالتحديد، وذكر صاحب كتاب بلوغ الأرب العديد من طبقات المحصلين للمذهب الزيدي من أولاد موسى بن عبد الله بن الحسن المثني وعددهم أحد عشر عالماً، وهم المعروفون ببني الطيب، ويشير أيضاً إلى أن أغلب من ذكره من الشرفاء هم ممن تولى إمارة مكة من الأشراف، وقد عددهم من محصلي المذهب الزيدي، أي من كبار علماء المذهب المجتهدين، الذين كان لهم دور مشهور ومشهود في الفكر الزيدي، وإن كان بعض ممن ذكر لم يتول الإمارة، إلا أنه قد ذكر الجميع، وهذا يدل على كثرة العلماء بين أشراف مكة والمدينة المنورة آنذاك، وإنهم من كبار علماء المذهب المعروفين لدى رجال وأئمة المذهب، وهذا يؤكد على وجود علاقة بين أشراف مكة

8. هو الإمام المنصور بالله عبد الله بن حمزة بن سليمان بن حمزة بن علي بن حمزة بن أبي هاشم الحسن بن عبد الرحمن بن يحيى بن عبدالله بن الحسين بن الإمام القاسم بن إبراهيم بن إسماعيل بن إبراهيم بن الحسن بن علي بن أبي طالب. كان فصيحاً مسترسلاً وشاعراً بليغاً وله مؤلفات عديدة ورسائل وفتاوى كثيرة، ومن مؤلفاته كتاب الشافي، للمزيد انظر: سلوى علي قاسم المؤيد، الأسس الفكرية للتناقضات في السلطة الزيدية، دراسة تاريخية لظاهرة تعارض الأئمة الزيدية في اليمن، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء، إشراف نزار الحديثي، 2008م، صفحات 182، 181.

والمدينة من جهة، وأئمة المذهب الزيدي من جهة أخرى، فالواضح أنهم في تلك الحقبة الزمنية هم رجال المذهب وأئمتهم، ومنهم أكابر علماء المذهب الزيدي (القاسم، د.ت، 119) (أبو الرجال، د.ت، 111).

علاقة الشريف قتادة بالخليفة الناصر لدين الله العباسي⁽⁹⁾: تقلبت علاقة الشريف قتادة بن إدريس مع الخليفة العباسي الناصر لدين الله العباسي، فقد كان على وعي تام بالظروف الاقتصادية المحيطة به، فلم تكن مكة لتستطيع الاعتماد على نفسها لسد حاجاتها الضرورية، بل كانت تعتمد على ما يرد إليها من مساعدات خارجية، ومن هذا المنطلق حاول قتادة كبح طموحه الذي تجاوز مكة، إذ اتخذ تجاه الخلافة العباسية سياسة تتسم بالمرونة والحزم في الوقت نفسه، فقد كان يخطب للخليفة العباسي، على الرغم من أنه يعتبر نفسه أحق منه بالخلافة، ثم يخطب لنفسه بالأمر المنصور مباشرة (القلقشندي، د.ت، 277) (ابن تغري بردي، د.ت، 221) ورغم طموحه هذا فإنه لم يتخذ أية خطوة عملية للمطالبة بالخلافة، فقد استنفذ كل طاقاته في محاولات السيطرة على الحجاز بكامله.

لقد عُرف عن الشريف قتادة أنه لم يطمأ بساطاً لخليفة ولا ملك، رغم أنه كان يحمل إليه في كل سنة من بغداد عاصمة الخلافة، رزقه وثلاث خلع، والفدى العراقية والشامية والمصرية التي كانت لبني أبي هاشم وهو في مكة، وكان يقول: "أنا أحق بالخلافة من الناصر لدين الله" (أبو شامة، 1997، 341) (ابن الأثير، 1987، 714)، ويعلق أبو الرجال على قول قتادة هذا بقوله: "وهو كذلك" (أبو الرجال، د.ت، 111)، وكان يأبى ويمتنع عن زيارة الخليفة اشد الامتناع (ابن الجوزي، 2001، 63) (ابن الأثير، 1987، 636)، ربما لأنه كان يتوقع الفتك به من قبل الخليفة، ونتيجة ذلك ساءت علاقة قتادة بالخليفة العباسي، وربما ساعد على نفور كل منهما من الآخر، إضافة لنهب الحج العراقي من قبل قتادة أكثر من مرة، حيث عقد الخليفة الناصر لعلامه أقباش على مكة بالعقد لا بالمباشرة، وكذلك على الحرمين وإمرة الحج لعظم مكانته عنده، وربما لطبيعة العلاقة الحميمة بين الشريف قتادة وإمام اليمن المخالف للعباسيين بالمذهب، ولا يستبعد هنا تخوف الخليفة من اتساع نفوذ الشريف قتادة والعودة للمطالبة بأحقية آل أبي طالب، وخاصة العلويين منهم بالخلافة، كما حصل ذلك من قبل.

لقد طرأ تغير على علاقة الشريف قتادة بالخليفة الناصر، وساءت معاملته للحجاج، وخاصة بعد اغتيال عبده بلال، حيث اعتبر الشريف قتادة أن ما جرى مقصود ومدبر له من قبل الخليفة (ابن الأثير، 1987، 631) (الفاسي، د.ت، 471).

والسؤال المطروح هنا، هل دبر الخليفة قتل قتادة؟ يبدو أن هذا مستبعد، لأن العلاقات بين العباسيين وأشرف مكة كانت طيبة في الغالب، وكان الأشرف يخطبون للخلفاء العباسيين، فلماذا إذاً دبّر الخليفة مؤامرة لقتله؟ وإذا كان يريد قتل قتادة أو عزله فلماذا يرسل له من يفتاله؟ ولماذا لا يرسل له جيشاً يقضي عليه وينحيه، كما حصل قبل ذلك مع الأمير مكثر وبعده مع الأمير داود؟، ولعل الذي يثبت أن الخليفة العباسي الناصر لدين الله لم يدبر تلك المؤامرة أنه لم يظهر إنكاراً على ما تقدم من نهب الحج (ابن الجوزي، 2001، 187)، فقد أرسل الخليفة في السنة التالية، أي في سنة (610هـ/1213م) مع حسام الدين بن أبي فراس الذي حج بالناس نيابة عن أمير الحج العراقي محمد بن ياقوت، الذي مُنع لما جرى للحاج في ولايته، المال والخلع والكسوة على العادة وكتاباً موجهاً من الخليفة الناصر إلى الشريف قتادة يستدعيه لزيارته في بغداد ليكرمه، وقد وعده الخليفة ومناه، وكان فحوى كتاب الخليفة للشريف قتادة: "أنت ابن العم والصاحب وقد بلغني شهامتك وحفظك للحاج، وعدلك وشرف نفسك، وعفتك ونزاهتك، وقد أحببت أن أراك، وأشاهدك، وأتبرك بقدمك عليّ ببغداد وأحسن إليك" (ابن الأثير، 1987، 636) (أبو شامة، 1997، 187).

وقد لعب أمير الحج العراقي الدور الكبير في إزالة شكوك قتادة تجاه الخليفة الناصر لدين الله، وجعل أمير الركب حسام الدين يقول له، ويقنعه بأنه لم يصح عند الديوان العزيز، إلا أن الشرفاء وأتباعهم نهبوا أطراف الحج، ثم استرسل يقول لقتادة، أن مولانا الوزير يقول لك: "وليس كمال الخدمة الإمامية إلا بتقبيل العتبة، ولا عز الدنيا والآخرة إلا بنيل هذه الرتبة" أي أن أمير الحج طلب من قتادة عدم التماهي في الإساءة للخليفة وإلى الحج، وأن يعلن الشريف قتادة الولاء والبيعة للخليفة الناصر مجدداً، وبعد سماع الشريف قتادة لما قاله أمير الحج العراقي رد عليه بقوله: انظر في ذلك، ثم تسمع الجواب، فاجتمع قتادة ببني عمه الأشرف وعرفهم أن ذلك استدراج له ولهم؛ حتى يتمكن من الجميع، وقال: "يا بني الزهراء، عزكم إلى آخر الدهر مجاورة هذه البنية، والاجتماع في بطاها، واعتمدوا بعد اليوم أن تعاملوا هؤلاء القوم بالشر، يوهنوكم من طريق الدنيا والآخرة، ولا يرغبوكم بالأموال والعهد؛ فإن الله

9. هو أبو العباس أحمد بن حسن بن يوسف بن محمد العباسي (575-622هـ/1180-1225م)، أمه أم ولد تدعى "زمرد خاتون" وله من الولد محمد الظاهر بأمر الله، تولى الخلافة وعمره ثلاثة وعشرون عام، وحاول أثناء خلافته إعادة الخلافة على ما كانت عليه من قوة وهيمته، اقام العدل وسكب الخمر، وكان الملوك والاكابر اذا سمع اسمه في المجلس قصروا من اصواتهم، هيبة واجلال له، للمزيد أنظر: القرمانى: مصدر سابق، ج2، ص185.

قد عصمكم وعصم أرضكم بانقطاعها، وأنها لا تبلغ إلا بشق الأنفس"، وانشد يقول (ابن الأثير، 1987، 636) (النويري، 2002، 70):

بِلَادِي وَإِنْ جَارَتْ عَلَيَّ عَزِيَّةٌ وَلَوْ أَنَّنِي أَعْرَىٰ بِهَا وَأَجُوعٌ
وَلِي كَفُّ ضَرْعَامٍ إِذَا مَا بَسَطْتُهُ إِبْهَا أَشْتَرِي يَوْمَ الْوَعَىٰ وَأَبِيْعُ
وَفِي بَطْنِهَا لِلْمُجْدِبِينَ رَبِيْعٌ مَعُوْدَةٌ لَنْتُمُ الْمَلُوكِ نِظْهَرِهَا
لَهَا مَخْرَجًا إِنِّي إِذَا نَرَقِيْعٌ؟ أَ تَرْكُهَا تَحْتِ الرِّهَانِ وَأَبْتِغِي
أَضُوْعٌ وَأَمَّا عِنْدَكُمْ فَأَضِيْعٌ وَمَا أَنَا إِلَّا الْمِسْكُ فِي غَيْرِ أَرْضِكُمْ

وهنا نلاحظ أن قتادة لم يكتف بتحريضهم على عدم الطاعة والولاء للعباسيين فقط، بل لا بد من معاملتهم بالشدة والقسوة فعندئذ يحترمونها ويهابونها، كذلك اعتمد إلى حد كبير، في تدعيم استقلاله على سياسة الانعزال مستغلا في ذلك بُعد مكة وطبيعتها الجغرافية من صحارى وجبال لا تقطع إلا بشق الأنفس عن الأقطار الإسلامية المجاورة.

وكان جواب أمير الحج: "يا شريف، أنت ابن بنت رسول الله صل الله عليه وسلم، والخليفة ابن عمك، وأنا مملوك تركي لا أعلم من الأمور التي في الكتب ما علمت، ولكني قد رأيت أن هذا من شرف العرب الذين يسكنون البوادي، ونزعات قطاع الطريق ومخيفي السبيل؛ حاش لله أن أحمل هذه الأبيات عنك إلى الديوان العزيز، فأكون قد جنيت على بيت الله وبنى بنت نبيه صل الله عليه وسلم ما ألعن عليه في الدنيا والآخرة، وأحرق بسببه في الآخرة، والله لو بلغ هذا حيث أشرت لترك كل وجه وجعل جميع الوجوه إليك حتى يفرغ منك، ما لهذا ضرورة؛ إنه قد خطر لك أنهم استدرجوك لا تسيروا إليهم، وتمكن من نفسك، فقل جميلاً وإن كان فلك ما علمت" (ابن الأثير، 1987، 714) (ابن خلدون، 1956، 126)، فأصغى إليه قتادة، وعلم أنه رجل عاقل ناصح ساع بخير لمرسله وللمسلمين، فقال له: كثر الله في المسلمين مثلك، فما الرأي عندك؟ فأشار إليه أن يرسل من أولاده من لا يهتم به إن جرى عليه ما تتوقعه - ومعاذ الله أن يجري إلا ما تحبه- وترسل معه جماعة من ذوي الأسنان والهيئات من الشرفاء، فيدخلون مدينة السلام، وفي أيديهم أكتافهم منشورة، وسيوفهم مسلولة، ويقبلون العتبة، ويتوسلون برسول الله صل الله عليه وسلم، وبصفح أمير المؤمنين؛ سترى ما يكون من الخير لك وللناس، والله لئن لم تفعل هذا لتركيبن الإثم العظيم، ويكون ما لا يخفى عنك، فشكره قتادة وندم على فعلته، وأشارت بعض المصادر، أن الشريف قتادة أرسل إلى الخليفة وفدا من كبار الأشراف والمشايخ على رأسهم ابنه راجح في طلب العفو (ابن الأثير، 1987، 714).

ويتضح لنا مما سبق من حوار بين الشريف قتادة وأمير الحج العراقي يظهر أن ذلك وقع بأثر الفتنة، وذكر ابن الأثير (ابن خلدون، 1956، 126)، ما يوافق ذلك، ووافقه ابن سعيد المغربي (المغربي، 1955، 270)، ويقضى ذلك ان بعد سنة من الفتنة دخل هؤلاء بغداد على الهيئة التي رُسم لها، وهم يضجون ويبيكون ويتضرعون، والناس يبكون لبكائهم، واجتمع عدد كبير من أهالي بغداد، ومالوا إلى باب النوبي من أبواب مدينة بغداد، فقبلوا هنالك العتبة، وبلغ الخبر الخليفة الناصر لدين الله، فغفا عنهم وعن مرسلهم، وأنزلوا في الديار الواسعة، فاستقبلوا أفضل استقبال وأكرموا أحسن ضيافة، وبعد عودة الوفد المرسل من قبل الشريف قتادة وعلى رأسهم ابنه راجح إلى مكة بما أحب، قال قتادة: "لئن الله أول رأي عند الغضب، ولا عدمننا عاقلاً ناصحاً يثينا عنه" (العاصمي، د.ت، 227، 228).

وعلى أثر ذلك قرر الشريف قتادة الذهاب إلى بغداد ومقابلة الخليفة العباسي، فلما وصل إلى المشهد الغروي في النجف، وبلغ الخليفة وصوله، أخرج الخليفة لاستقباله العلماء والأعيان وأكابر الدولة، وخرج كذلك أهل الكوفة لاستقباله، وكان من جملة من خرج في غمار الناس لاستقباله، قوم معهم أسد ربطوه في سلسلة، فلما رآه قتادة تطير من ذلك وقال: ما لي ولأرض تُذل فيها الأسود، والله لا دخلتها، ورجع من النجف ولم يدخل الشريف قتادة بغداد (ابن الأثير، 1987، 714) (الذهبي، د.ت، 360)، فلما علم الخليفة بعودة قتادة كتب إليه بعباته في رجوعه، فأنشد قتادة الأبيات التي سبق وأن أنشدها لأمير الحج العراقي، ورفض إيصالها للخليفة حتى لا تزداد الأمور سوءاً بين الطرفين (ابن خلدون، 1956، 126)، ولما بلغ الخليفة هذه الأبيات استشاط غضباً، وامتلأ حنقا وحرماً وكتب إليه كتاباً، يقول فيه أما بعد: "إِذَا نَزَعَ الشِّتَاءُ جِلْبَابَهُ، وَلبس الربيع أثوابه، قاتلناكم بجنود لا قبل لكم بها، ولنخرجكم منها أدلة وأنتم صاغرون" (العاصمي، د.ت، 224). وعندما قرأ الشريف قتادة الكتاب تحوف وارتاع لذلك أشد ارتياع، وأرسل إلى بني عمه آل المهنا من بني الحسين بالمدينة يستجدهم ويحثهم على مناصرته ويسألهم المعونة، وقد صدر الشريف قتادة الكتاب لهم فأتته منهم رجال

النجدة، ذوو العدد والعدة؛ فلما أقبلت تلك الكتيبة الناصرية من بغداد هزمها الشريف قتادة وبدد شملها وقهرها وعادت منهزمة، وعندما بلغ ذلك الخليفة الناصر العباسي، أنعم عليه الإنعامات الكاملة وأقطعته الإقطاعات الهائل، وظلت مكة طوال عهد قتادة بعيدة عن أي نفوذ آخر حتى قال المؤرخون عن الشريف قتادة بأنه: "أدهى وأشهر من ملك مكة" (الفاسي، د.ت، 471).

وترتب على ذلك أن أقامت الخلافة مع قتادة علاقات ودية (الطبري، 1966، 34) وأضاف صاحب كتاب إتحاف فضلاء الزمن بتاريخ ولاية بني الحسن إلى ذلك، أن الشريف قتادة أرسل إلى الخليفة، بعد ذلك النصر الذي أحرزه على جيشه، معترفاً طالباً الصفح والعفو، فعفا عنه الخليفة وأرسل له الهدايا الثمينة وأقطعته الإقطاعات الكثيرة، إلا أننا نشكك في ذلك، فربما يكون صاحب كتاب إتحاف فضلاء الزمن اختلق هذه القصة التي لا أساس لها من الصحة، وهو كعلوي متعصب ومتمحيز، أراد أن يظهر قوة العلويين من أهل الحجاز المنتسبين إلى الحسن بن علي بن أبي طالب، والذين بإمكانهم الاتحاد والتصدي لأعدائهم وقهر أي قوة حتى لو كانت قوات الخلافة (الطبري، 1966، 34) وهنا نتساءل أليس من المستغرب أن يرسل الخليفة إلى الشريف قتادة يدعو لزيارته، وزيارة مشهد الحسين بن علي بن أبي طالب، الذي يكن له قتادة كل احترام وتقدير؛ فيذهب وعندما تخرج بغداد لاستقباله يتطير من قوم معهم أسد ربطوه في سلسلة؛ فيعود من حيث أتى ليهجو الخليفة دون مبرر، وكان بإمكانه إذا كان قد ذهب إلى العراق وعاد أن يرسل إلى الخليفة كتاباً يعترز فيه عن عدم إمكانه مواصلة رحلته لبغداد، متعللاً بأي سبب كان، بدلاً من التهجم عليه، ثم إن جميع المصادر، التي بين أيدينا، لم تذكر أن الخليفة أرسل جيشاً لقتال الشريف قتادة؛ فهزم!!، وربما أراد الطبري التضييق؛ وذلك بإظهار الشيعة المتنافسين المتصارعين، الذين كثر القتال بينهم في تلك الآونة بمن يتناسون خلافاتهم إذا ما تعرض أحدهم لخطر خارجي. وبالإضافة لما سبق ربما كان الخليفة الناصر قد أرسل يتهدد ويتوعد قتادة على أثر اعتدائه على الحجاج العراقيين؛ فرد عليه بهجوه، وتراجع عن ذلك عندما نصحه أمير الحج حسام الدين؛ فأرسل يعترز للخليفة عما بدر منه، فعفا عنه وأقطع بعض الإقطاعات، إذ من المستبعد أن يرسل الخليفة إليه جيشاً لقتاله، وبعد أن يهزم جيش الخليفة يرسل إليه قتادة معترفاً فيكافئه بالهدايا والإقطاعات على ذلك، خصوصاً وأن قتادة كان رجلاً داهية محنكا، وصف إنه "أدهى وأشهر من ملك مكة" (الفاسي، د.ت، 471)، إضافة إلى أن قتادة كان يخطب للخليفة الناصر ثم يخطب لنفسه من بعده، رغم أنه كان يرى أحقيته بالخلافة من الناصر، إلا أنه لم يكن يجرؤ على ادعاء الخلافة، هذا إضافة لذكر أبي شامه من أنه لم يبطأ بساطا لخليفة ولا غيره، بل كانت تحمل إليه الخلع والأموال والذهب والعطايا من بغداد كل سنة وهو في دار ملكه (ابن تغري بردي، د.ت، 183) (القلقشندي، د.ت، 161).

وفي الواقع نلاحظ استمرار الشريف قتادة على طاعة الخليفة الناصر، واستمراره في الدعاء له بعد عودته إلى مكة، ولكن يشير ابن خلدون في سنة (1218هـ/615م)، أن قتادة "خطب بمكة للعادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر، وللکامل بن العادل بعدهما"، على أثر قطع زيارته إلى بغداد (ابن خلدون، 1955، 126).

وفاته: اختلفت مصادر الدراسة وتباينت في تحديد سنة وفاة الشريف قتادة، إلا أن الفاسي بعد ذكره لما أوردته مصادر الدراسة المختلفة حول وفاة قتادة يرجح الرأي الأول وهو سنة (1220هـ/617م) بقوله: "هو الذي رأيته أكثر"، (الفاسي، د.ت، 472) ونحن نميل إلى رأي الفاسي؛ فأغلب المصادر المعاصرة لقتادة تشير إلى ذلك، كما اختلفت المصادر في طريقة مقتل قتادة، إلا أن المتفق عليه أن وفاته كانت بمكة (ابن الجوزي، 2001، 254) (النويري، 2002، 71).

وحول مقتله؛ فتشير مصادر الدراسة أن قتادة لما مرض وهو في طريقة للاستيلاء على المدينة، وولى أخاه على الجيش وساعده في ذلك الحسن بن قتادة (أبو الفداء، 1997، 226)، فلما أبعدوا عن المكان الذي تركهم فيه الشريف قتادة بلغ الحسن أن عمه قال لبعض الجنود: إن أخي مريض وهو ميت لا محالة، وطلب منهم أن يخلفوا ليكون هو الأمير بعد أخيه قتادة؛ فحضر الحسن عند عمه واجتمع إليه عدداً كبيراً من الأشراف ومماليك أبيه، فقال الحسن لعمه: "قد فعلت كذا وكذا، فقال: لم أفعل، فأمر الحسن الحاضرين بقتله، فلم يفعلوا وقالوا: أنت أمير وهذا أمير، ولا نمأيدنا إلى أحدكما، وقال غلامان للحسن بن قتادة: نحن عبيدك فمرنا بما نشاء. فأمرهما أن يجعلوا عمه في حلقة، ففعلوا، ثم قتله". فلما سمع الشريف قتادة الخبر غضب، وحلف ليقتل ابنه حسن؛ فكتب بعض أصحابه إلى الحسن يعرفه بالحال، ويقول له: ابداً به قبل أن يقتلك فعاد الحسن إلى مكة، فلما وصلها قصد دار أبيه ومعه عدد قليل من الرجال؛ فرأى على باب الدار جمعاً كثيراً، فأمرهم بالانصراف إلى منازلهم؛ ففارقوا الدار وعادوا إلى مساكنهم، ودخل الحسن على أبيه، فلما رآه أبوه شتمه وعنفه، وبالغ في ذمه وتهديده، فوثب إليه الحسن فخنقه لوقته (ابن خلدون، 1955، 126) (الفاسي، د.ت، 126، 475).

وقيل أن الحسن واطاً جارية كانت تخدم أباه؛ فأدخلته ليلاً عليه، واستعان بها وبغلام له في إمساك يديه وقتله، ثم قتلهما بعد ذلك لنلا يخرج الخبر من قبلهما، وزعم للناس أنهما قتلا أباه، فكنتم الحسن قتل والده وخرج إلى الحرم الشريف، وأحضر الأشراف،

وقال: "إن أبي اشتد مرضه وقد أمركم أن تحلفوا لي على أن أكون أنا أميركم؛ فحلفوا له، وبهذا ولي الحسن بن قتادة إمارة مكة بالغلبة والحيلة (ابن الأثير، 1987، 713، 722) .

الخاتمة

اتسمت شخصية الشريف قتادة بن إدريس الحسني بالقوة والشكيمة والطموح بتوسيع نفوذه، وخاصة بعد أن استولى على إمارة مكة من أبناء عمومته، خاصة بعد أن نجح في وضع نهاية لحكم أسرة الهواشم من آل فليته، مستغلاً الفوضى والاضطرابات والجور التي اتصف بها حكام هذه الأسرة، وإعادته الاستقرار والأمن إلى إمارة مكة، بل وبحنكته استطاع أن يضم إلى إمارة مكة بعض المناطق المجاورة لها.

ويظهر أن الحقبة الزمنية التي حكم فيها الشريف قتادة كانت غنية بالأحداث، سواء ما تعلق منها بالعلاقة مع جيرانه في اليمن، التي كانت تحت سيطرة الإمام عبد الله بن حمزة، الذي يُدين له قتادة بالولاء والطاعة وترتيبه علاقات إيجابيه معه، أو في علاقاته بالخلافة العباسية في بغداد، التي تراوحت بين سياسة المهادنة عن طريق ذكر اسم الخليفة عند الدعاء والخطبة يوم الجمعة، وبين سياسة الحذر، كما حصل مع قافلة الحج العراقي.

لقد مال الشريف قتادة إلى مهادنة سلاطين بني أيوب الملك المعظم والملك الكامل للاستئجاب بهم وقت الحاجة، وهذا يجسد لنا طبيعة المرحلة آنذاك، ودأب الشريف قتادة منذ أن استتب له الأمر بمكة على الإغارة على المدينة بغية الاستيلاء عليها وضماها إلى سيادته، على أن هذه الغارات قد آلت جميعها إلى الفشل، ولم يتحقق حلم الشريف قتادة في ضم المدينة إلى إمارة مكة. واستطاع الشريف قتادة بعد انتزاع الشرافة من الأمير مكثر، رغم الصراعات والتناقضات التي سادت عهده، أن يؤسس لبقاء شرافة مكة واستمراريتها في ذريته منذ بداية القرن السابع الهجري الثالث عشر الميلادي حتى آخر أشرف مكة في بداية القرن العشرين.

المصادر والمراجع

- ابن الأثير، أبو الحسن علي بن محمد الجزري (ت 630هـ/1233م)، الكامل في التاريخ، دار الكتاب العربي، بيروت، 1987م.
- البركاني، شرف بن عبد المحسن، الرحلة اليمانية، إعداد وتحقيق عاتق بن غيث البلادي، دار النفائس، بيروت، 2005م.
- ابن الجوزي، شمس الدين أبو المظفر يوسف (ت 654هـ/1256م) مرآة الزمان في تواريخ الزمان، تحقيق محمد بركات وآخرون، دار الرسالة، ط1، دمشق، سوريا، (1434هـ/2013م).
- ابن الجوزي، عبد الرحمن بن علي بن محمد (ت 597هـ/1020م)، أخبار الأذكىاء، وضع حواشيه محمد عبد الكريم النمري، دار الكتب العلمية، بيروت، 2001م.
- الحموي، ياقوت شهاب الدين أبو عبد الله (ت 6230هـ)، معجم البلدان، بيروت، دار صادر، 1986م
- الحنبلي، شهاب الدين أبي الفلاح عبد الحي (ت 1089هـ/1678م)، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق مصطفى عبد القادر عطا، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- الحربي، عاتق بن غيث البلادي (ت 1352هـ/1934م)، معجم قبائل الحجاز، دار مكة للنشر والتوزيع، مكة، (1403هـ/1982م).
- ابن خلدون، عبد الرحمن بن محمد (ت 808هـ/1406م)، العبر وديوان المبتدأ والخبر في أيام العرب والعجم والبربر ومن عاصرهم من ذوي السلطان الأكبر، دار الكتب العلمية، بيروت، 1992م.
- دعثم، أبو فراس (ت 614هـ/1217م)، السيرة الشريفة المنصورية (سيرة الإمام عبد الله بن حمزة)، تحقيق عبد الغني محمود عبد العاطي، دار الفكر المعاصر، بيروت، 1993م.
- الذهبي، محمد بن أحمد بن عثمان الذهبي أبو عبد الله شمس الدين (ت 748هـ/1347م)، العبر في خبر من غير، دار الكتب العلمية، بيروت، دون تاريخ نشر، تاريخ الإسلام، تحقيق عمر عبد السلام دمر، دار الكتاب العربي، (1410هـ/1019م).
- أبو الرجال، احمد بن صالح (ت 1092هـ/1681م)، مطالع البدور ومجمع البحور في تراجم رجال الزيدية، تحقيق الرقيب مطهر محمد حجر، عناية مجد الدين المؤيدي، منشورات مركز أهل البيت للدراسات الإسلامية، صعده، اليمن، 2004م. ج4.
- رسول، يوسف، السلطان الملك الأشرف عمر (ت 669هـ/1270م)، طرف الأصحاب في معرفة الأنساب، حققه ك. و. سترستين، مطبوعات المجمع العلمي العربي بدمشق، 1949م.
- سلوى علي قاسم المؤيد، الأسس الفكرية للتناقضات في السلطة الزيدية، دراسة تاريخية لظاهرة تعارض الأئمة الزيدية في اليمن، أطروحة دكتوراه، كلية الآداب، جامعة صنعاء، إشراف نزار الحديثي، 2008م.
- أبو شامة، شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل بن إبراهيم بن عثمان المقدسي الدمشقي الشافعي، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، ط1، (1418هـ/1997م).

- الصفدي، صلاح الدين خليل (ت764هـ/1362م)، الوافي الوفيات، ج24، تحقيق احمد الارناؤوط، تركي مصطفى، دار إحياء التراث العربي، بيروت، 2000م.
- الصنعائي، علي بن عبد الله بن القاسم (ت1176هـ/1762م)، بلوغ الأرب وكنوز الذهب في معرفة المذهب، تحقيق عبد الله بن عبد الله الجوني، مؤسسة الامام زيد بن علي الثقافية، صنعاء، اليمن، 2002م.
- ابن طباطبا، أبو المعمر بن يحيى طباطبا (ت478هـ/1085م)، كتاب أبناء الإمام في مصر والشام، تحقيق السيد يوسف بن عبد الله، ط1، جل المعرفة، الرياض، (1425هـ/2004م)
- الطبري، أبو جعفر محمد بن جرير (ت310هـ/922م)، تاريخ الأمم والملوك، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت، 1966م.
- الطقطقي، محمد بن تاج الدين علي طباطبا الحسني (ت709هـ/1309م)، الاصيلي في انساب الطالبين، تحقيق مهدي الرجائي، نشر مكتبة المرعشي، قم، إيران، (1379هـ/1959م).
- ابن ظهيرة، محمد خير الدين القرشي الشافعي ابن ظهيرة (ت814هـ/1411م)، الجامع اللطيف في فضل مكة وأهلها وبناء البيت الشريف، المكتبة الشعبية، 1979م.
- عنبه الأصغر، أحمد بن علي الطالبي (ت828هـ/1424م)؛ عمدة الطالب في انساب آل أبي طالب، تحقيق لجنة من المحققين، مكتبة الثقافة الدينية، بور سعيد، مصر، 2001م،
- العاصمي، عبد الملك حسين بن عبد الملك (ت1111هـ/1699م)، سمط النجوم العوالي في أنباء الأوائل والتوالي، تحقيق الشيخ عادل احمد عبد الموجود، الشيخ علي محمد معوض، دار الكتب العلمية، بيروت، 1998م.
- العبيدي، جمال الدين أبي الفضل بن المهنا (ت القرن السابع)، التذكرة في الأنساب المطهرة، تحقيق مهدي الرجائي، نشر مكتبة آية الله المرعشي، قم، إيران، (1379هـ/1959م).
- فالح حسين، المؤتمر الدولي الرابع لتاريخ بلاد الشام (بلاد الشام في صدر الإسلام)، م2، عمان، الندوة الثانية، 1987م.
- أبو الغداء، الملك المؤيد عماد الدين (ت732هـ/1331م)، تاريخ أبي الغداء المسمى المختصر من أخبار البشر، تحقيق محمود ديوب، دار الكتب العلمية، بيروت، 1997م.
- الفاسي، محمد بن أحمد الحسني الفاسي المكي تقي الدين (ت832هـ/1428م)، العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين، تحقيق محمد حامد، مؤسسة الرسالة، ط2، (1406هـ/1986م).
- الفلقشندي، أبو العباس أحمد بن علي الفلقشندي (ت821هـ/1418م)، فلانند الجمال في التعريف بقبائل عرب الزمان، تحقيق إبراهيم الابباري، دار الكتب الحديثة، مصر، القاهرة، 1963م.
- الفلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، تحقيق محمد حسين شمس الدين، دار الكتب العلمية، بيروت، 1987م.
- القفطي، جمال الدين أبي الحسن علي بن يوسف (ت646هـ/1248م)، إنباه الرواة على أنباه لنحاة، تحقيق محمد أبو الفضل إبراهيم، دار الكتب المصرية، القاهرة، 1973م، 1950م.
- ابن كثير، عماد الدين أبو الغداء إسماعيل بن عمر الدمشقي، (ت774هـ/1272م)، البداية والنهاية، مطبعة السعادة، ط1، مصر، 1932م
- المجاور، جمال الدين بن يوسف (ت690هـ/1291م)، صفة بلاد اليمن ومكة وبعض الحجاز المسماة تاريخ المستبصر، عني بتصحيحها اوسكر لوفغرين، مطبعة بريل، ليدن، 1951م.
- المغربي، أبو الحسن علي بن موسى المغربي الأندلسي (ت685هـ/1259م)، المغرب في حلى المغرب، دار المعارف، ط2، القاهرة، 1955م.
- النويري، شهاب الدين أحمد بن عبد الوهاب النويري (ت732هـ/1331م)، "نهاية الأرب في فنون الأدب"، تحقيق: أحمد الزيني، القاهرة، (1423هـ/2002م).

Sharif Qatada bin Idris AlHassani, the Emir of Mecca (527-617 AH \ 1132-1220 CE)*Ibrahim Faour Al Shraah¹, Anwar Aowdh Alkhaldi²***ABSTRACT**

The aim of this study is to learn about Sharif Qatada bin Idris al-Hassani, the Emir of Mecca and his works. In the previous literature, there is no clear picture of this personality and his contributions and the events he experienced, specifically during the period (527-617 AH / 1132-1220 CE). Therefore, this study attempts to clarify the character of Qatada from his initiation until his death, including his lineage, identity, his sons, his sect, his doctrine and his teachings, his legacy as the Sharif of Mecca, his relations with the Husseini Prince of Medina and the people of Taif, as well as his positions from the Iraqi Hajj convoy which had influenced his relationship with al-Nasir; his contemporary Abbasid Caliph. In Addition, the study explores the relationship of Sharif Qatada with his contemporary Imam Abdullah bin Hamza, especially after the augmentation of Qatada's importance and the expansion of his sovereignty; taking into account that his legacy of Mecca continued in his lineage for seven centuries. Accordingly, Sharif Qatada is considered as the great grandfather of the dynasty of Al-Ashraf AlHassaniyin who took over the Emirate of Mecca. The last of which was Sharif Hussein bin Ali (1908-1916 CE) who was the hundredth Sharif of the descendants of Qatada. This dynasty is still governing in the present time in the Hashemite Kingdom of Jordan; as Sharif Qatada is the grandfather of King Abdullah II Bin al-Hussein.

Keywords: Sharif Qatada, Mecca, Al-Ashraf AlHassaniyin, pilgrimage convoy, AlHijaz, AlMedina, Hashimes Family.

1 Department of History, University of Jordan; 2 Department of History, Al al-Bayt University, Jordan. Received on 9/12/2018 and Accepted for Publication on 14/3/2019.